خامسًا:

اللَّبس الآتي مِن الأسلوب

وهذا موضعٌ مِن المواضع العريضةِ المرشِّحة لتخلّقِ اللّبسِ، وأوّل ما يميِّزه عمّا تقدّم أنّه لَبس غيرُ واقعٍ في جِبلّة اللّغة؛ إذْ إنّه ليس ممّا تُفْرِزه النّواميسُ اللّغويّة الفاعلةُ في تشكيلِ النّظام اللّغويّ، وإنّما هو لَبسٍ واقعٌ في الأسلوبِ وإخراجِ الكلام، ومِن أمثلتِه أنْ يُفهَم الكلام فهمًا لفظيًّا على ظاهرِه، وحقُّه أنْ يُحمَلَ على مَحْمِل التّجوّزِ والانزياحِ اللّغويّ، أو أنْ تكون الدّلالةُ الأسلوبيّة عائمةً تحتمل معانيَ متباينة، أو أنْ يكونَ المقصدُ الأوّل للمرسِل الإلباسَ والتّعمية، فيتّكئَ، لتحقيقِ مطلبِه، على أسلوبٍ لغويّ مُخفيًا في نفسه ما يريد إخفاءَه، مُوهِمًا مَن يقف وجاهَه بالمعنى الظّاهرِ غيرِ المراد، والمشكلةُ في هذه المواضعِ آتيةٌ مِن إيرادِ المقاصد والمعاني بألفاظٍ لا تُفهَم على حقيقتِها، فليستْ المسألة هنا كنظريّةِ "دي سوسير" الدّلاليّة؛ أعني أنّها ليستْ كمثلِ الصّورة الصّوتيّة(الدّالّ) التي تستدعي صورةً ذهنيّة(المدلول) استدعاءً مباشرًا، فالأمرُ هنا مغاير؛ ذلك أنّها قائمةٌ على الاستدلالِ المنطقيِّ، فلو قيل:

"ضعْه على الرّفّ"

والقائلُ يقصد مِن هذا المعنى المجازيِّ، لَما دلّتِ الألفاظ على المعنى دلالةً مباشرة؛ إذْ ليس ثمّ بُدٌّ مِن فكِّ هذه الرموزِ، والتّدرّجِ في الاستدلالِ المنطقيّ، فالمرء يضعُ على الرّفّ ما لا يحتاج إليه إلاّ قليلاً، ومعنى هذا أنّ الوضعَ على الرّفّ هو تغييبُ الشّيء واطّراحه، وهكذا يهتدي المرءُ عند إقامةِ علاقاتٍ منطقيّةٍ إلى أنّ هذا التّعبيرَ يستلزمُ معنى التّناسي والتّجاهل.

ومِن أمثلةِ "الاستدلال المنطقيّ" أنّ امرأةً قالت لرجلٍ: أشكو إليك قلّة الجرذان، فقال: ما أحسنَ ما كَنَيْتِ به، املؤوا بيتَها خبزًا، وسَمْنًا، وتمْرًا[1]، والظّاهر أنّ هذا الأسلوبَ الكنائيّ موغِل في الإلباسِ، والنّاس في قدرتِهم على إدراكِ مَراميه متفاوتون، وقدْ استطاع ذلك الرّجلُ الوالي أنْ يقتنصَ مرادَها بتجافيهِ عن دِلالةِ الألفاظِ المعجميّة، واستشرافِه ملحظِ "الاستدلال المنطقيّ"، فمعنى "قلّة الجرذان" يستلزم إيحاءً في الذّهن مضمونُه قلّةُ ما تقتاتُ عليه، أو تكثر في المواضعِ التي يكونُ فيها، وقد شَكا مِن هذا النّظرِ القاصرِ عبدُ القاهر الجرجانيُّ؛ أعني فهمَ الألفاظِ على حقيقتِها، فقال: "ومِن عادة قومٍ ممّن يتعاطى التّفسيرَ بغير علمٍ أنْ يَوْهَموا أبدًا في الألفاظِ الموضوعةِ على المجازِ، والتّمثيلِ أنّها على ظواهرِها، فيُفسِدوا المعنى بذلك، ويُبطِلوا الغرضَ، ويمنعوا أنفسَهم والسّامعَ فهمَ العلمِ بموضعِ البلاغة"[2].

---

(1) انظر: القاضي الجرجاني(482هـ)، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م، 170.

(2) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 305.

ومِن مِثل ما تقدّم قوله -صلّى الله عليه وسلّم-:

"مَن عضّ على شِبْدعِه سَلِم مِن الآثام"

والشِّبْدع العقربُ، وليست المشكلة في هذا السّياقِ الشّريفِ آتيةً مِن الكلمةِ الغريبة، بل مِن هذا الأسلوبِ الكنائيّ القائمِ على الانزياحِ اللّغويّ، فقد شبّه الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- اللّسانَ بالعقرب، فالعقربُ تلسع، وكذلك اللّسان[3]؛ إذْ إنّه يلسع النّاس بالنّميمة والغِيبة، وليس يخفى أنّ المرءَ لا يهتدي إلى هذا المعنى إلاّ بالاستدلالِ المنطقيّ، أمّا باللّفظ فلا.

ومِن مِثل ما تقدّم أنّ دَلاّلةً دخلت إلى قومٍ تخطِب إليهم، فسألوها عن صناعتِه، فقالتْ: "يكتب بقلم حديد، ويختم بالزّجاج"، ولم يفهموا المتعيَّن مِن كلامِها بأخذِه على ظاهرِه، وإنّما اعتمدوا الاستدلالَ المنطقيّ سبيلاً ومُحتكَمًا موجِّهًا إلى المتعيِّن، ففهموا مِن كلامها أنّه حجّام[4]، والحاصل أنّه تعبيرٌ كنائيّ مُلبِس قد يضلّ عن مقصِده كثيرٌ، والمفارَقة ههنا أن تِلك الدَّلاّلةَ تريد أنْ تُذيع في خاطرِ المتلقّي معنى مفهومًا، وقدْ كان أمامَها سبيلان: الأولى صريحةٌ دالّة، والثّانية مُلْمِحةٌ مُعْتاصة، ولكنّها آثرتْ الثّانية، والملحظُ اللّطيف ههنا أنّ كلتا السّبيلَين تؤدّي إلى الغرض نفسِه، ولكنّ إحداهما أطولُ مِن الثّانية؛ ذلك أنّها تجتزِئ مِن المستقبِل وقتًا لا بأسَ به حتّى يصلَ إلى المتعيِّن مِنها، وقدْ تكون مُضلِّلة غيرَ هاديةٍ إلى ذلكم الغرضِ، ومِن هنا يتبيّن أنّ الكلامَ "على ضربَين: ضربٍ أنت تصل مِنه إلى الغرض بدِلالة اللّفظ وحدَه، وذلك إذا قصدتَ أنْ تُخبِر عن "زيد" مثلاً بالخروجِ على الحقيقةِ، فقلت: خرج زيدٌ، وضربٍ آخرَ أنت لا تصلُ مِنه إلى الغرض بدلالةِ اللّفظِ وحده، ولكنْ، يدلُّك اللّفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعُه في اللّغةِ، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالةً ثانيةً تصل بها إلى الغرضِ، ومدار هذا الأمرِ على الكنايةِ، والاستعارة، والتّمثيل"[5].

ومِن مواضعِ اللّبس الأسلوبيّ الآتي مِن فهمِ الكلامِ على ظاهرِه، أو مِن التّردّد بين المعنى الحقيقيِّ والمعنى المجازيّ، التّعبيراتُ الاصطلاحيّة، ومِن ذلك قولُنا:

1- أخذ بيدِه.

2- وضعه على الرّفّ.

3- هو يلعب بالنّار.

([3]) انظر: الزمخشري، الفائق، 2/220.

([4]) انظر: القاضي الجرجاني، المنتخب، 76.

([5]) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 262.

4- أعطاه الضَّوء الأخضر.

5- أدار له ظهرَه.

يظهرُ أنّ هذه التّعبيراتِ الكنائيّةَ حمّالةٌ لمعنيَين: لغويٍّ ومجازيّ، فقدْ يكون المتعيّن مِن الأولى أنّه أخذ بيدِه حقًّا، وقد يكون المراد أنّه أعانه على شيءٍ ما دون أنْ يحدثَ ما تقدّم.

وكذلك الجملةُ الثّانية؛ فقدْ يكون المتعيِّن أنّ الرّجلَ وضع على الرّفّ شيئًا، وقدْ يكون أنّه اطّرحه مستثنِيًا له.

واللّعب بالنّارِ في الثّالثةِ محتمِل، وإعطاؤه الضَّوء الأخضرَ كذلك[6]، والمعوَّل عليه في رفع هذا اللَّبْسِ الأسلوبيّ هو السّياقُ، ولكنْ، قد يقع المرءُ في الحَيْرةِ والاشتباهِ حتّى مع توافرِه، ومِن ذلك قولُه –تعالى-:

"قَدْ مَكرَ الذينَ مِنْ قَبلِهِم فَأتى اللهُ بُنيانَهُم مِنَ القَواعدِ"[7]

موضعُ التّأمّل قولُه –تنزّه اسمه-: "بنيانهم"؛ ذلك أنّها قد تُحمَل على المعنى الحقيقيِّ؛ والبُنيانُ ههنا هو الصّرحُ الذي بناه هامانُ لفرعونَ، وقد تُحمَل على المعنى المجازيّ، وقدْ ذهب آخرون إلى أنّه كلامٌ خرج مَخرَج التّمثيلِ والتّشبيهِ، ومعناه أنّ ما بَنَوْه مِن مكرِهم، وراموا إثباتَه وتأصيله، أبطله الله -تعالى- وصرفه عليهم، فكانوا بمنزلةِ مَن بنى بُنيانًا يتحصّن به مِن المهالكِ، فسقط عليه فقتله، والقَوْلان جائزان على مذاهبِ العربِ، ألا تراهم يقولون: بنى فلان شَرفًا، وبنى مَجدًا، وليس هناك بُنيان في الحقيقة"[8].

وقد وقف الغزاليّ عند هذا الموضعِ؛ موضعِ التّردّد بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيِّ في السّياقِ الواحد، فرأى أنّ اللّفظ إذا دار بينهما فهو للحقيقةِ إلى أنْ يدلّ الدّليلُ

---

(6) ومن ذلك في الإنجليزية:

Kick the bucket
Fly off the handle

وهما كنايتان عن الموت، وقد أشار "Jackson " إلى اللبس الآتي من احتمال الوجهين: الحقيقي والمجازي. انظر:

Jackson, Words, P.107.

وقد وقف "بالمر" عند التعبيرات الاصطلاحية مشيرا إلى أنه لا يمكن التنبؤ بالمتعين منها من معاني كلماتها. انظر: علم الدلالة، 67.

(7) الآية (النمل، 26).

(8) انظر: ابن السيد، الإنصاف، 76، وهو عند ابن قتيبة مَثَلٌ، انظر: تفسير غريب القرآن، 242، وقد ذكر المعنيين الزمخشري، الكشاف، 2/407، وأبو حيان، البحر، 5/470-471.

أنّه أراد المجازَ، ومِن ذلك "استقبلني في الطّريقِ أسدٌ"، فليس يُحمَل هذا القولُ على "الشّجاع" إلاّ بقرينةٍ زائدةٍ، وإنْ لمْ تظهرْ هذه القرينة فاللّفظُ للسّبُع"[9].

ولمّا ورد المفسّرون على قولِه –تعالى-: **"وَإِنْ كُنتُم مَرضى أوْ عَلى سَفَرٍ أوْ جاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ أوْ لامَسْتُمُ النّساءَ فَلَم تَجِدوا ماءً فَتَيمَّموا"[10]** تردّدوا بين المعنى الحقيقيّ والمجازيِّ في قولِه -تنزّه-: "لامستُم"، فذهب فريقٌ مِن الفقهاء إلى إنّ لمسَ المرأة التي ليست بمُحْرَم ينقضُ الوضوء؛ ذلك أنّهم فهموا اللّمسَ فهمًا حقيقيًّا في السّياقِ الشّريفِ، وهو مسّ البشرةِ، وذهب فريقٌ آخرُ إلى أنّ المرادَ مِن اللّمسِ هو المعنى المجازيّ، وهو الجماعُ، والحكمُ المبنيُّ على هذا الفهمِ اللّغويّ أنّ لمسَها لا ينقضُ الوضوء؛ ذلك أنّه غيرُ الجماع، وأنّ الكنايةَ تكون في بعضِ المواقفِ لِطيّ ما يُستقبَح ذكرُه، فكنى الله –تنزّه وتبارك- عن الجماعِ بالمُلامَسةِ، واستدلّوا أيضًا بأنّ الفعل "لامس" مودَعٌ في القالبِ "فاعَل" الدّالِّ على المشاركةِ بين اثنين بقصدِهما صراحةً، والجماعُ كذلك[11].

وقد يحدثُ على صعيدٍ أسلوبيّ آخرَ أنْ تكونَ الدّلالة الأسلوبيّةُ عائمةً محتمِلة، بل يمكن تشبيهُها في هذا المقام بالمشترَك اللّفظيِّ الذي يقعُ تحتَه معنيان، ومِن ذلك قولُنا: **"خفيف اليد"**، فقدْ تعني أنّه نشّالُ لصّ، أو أنّه نشيطٌ سريع الحركةِ في عملِه، والحقّ أنّ هذا الاشتراكَ الدّلاليّ الأسلوبيّ أفضى إلى وهمٍ في حدثٍ كلاميٍّ يتجاذبه اثنان؛ إذْ إنّ أحدَهما شرع في وصفِ عاملٍ يريد أنْ يستخلصَه لعمله، وفي ثِنْي حديثِه ذاك، نَعَتَه بهذه العبارةِ، فاستعاذ الثّاني مِن قوله؛ إذ إنّ أوّلَ ما قفز إلى خواطرِه أنّ المتعيّن مِنها أنّه "نشّال"، فاستدرك عليه الأوّل موجِّهًا هذه الدّلالةَ الأسلوبيّةَ الوجهةَ التي أرادتْها نفسه.

وقدْ رُوِي أنّ الحجّاج سأل أعرابيًّا فقال: كيف كانت سنتكم هذه؟ فقال الأعرابيّ: **"تفرّقت الغنم، ومات الكلبُ، وطفئت النّار"**، فقال الحجّاجُ لأصحابه: أترونه ذَكَر خِصبًا

([9]) انظر: الغزالي، المستصفى، 1/693.

([10]) الآية (النساء، 43-44، والمائدة، 6).

([11]) انظر ما قيل في هذه الآية: اليزيدي، غريب القرآن، 49، وابن عزيز، النزهة، 388، والمعنى عنده النكاح، والجرجاني، المنتخب، 9، والمعنى عنده النكاح، وابن الأثير، المثل السائر، 2/181، وقد ذكر المعنيين، وابن فارس، المقاييس، مادة "ل م س"، وقد ذكر المعنيين، وابن منظور، اللسان، مادة "ل م س"، واللمس كناية عن النكاح عنده، وأبو حيان، البحر، 3/269، وعبد الوهاب طويلة، أثر اللغة، 192-197، وعبد القادر، أثر الدلالة، 314-316.

أم جَدبًا، فقالوا: بلْ جدبًا شديدًا، فقال الحجّاجُ: ما أقلّ بصرَكم بأمر العربِ، وإنّما ذكر خِصبًا، والمتعيُّن مِن كلامِ الأعرابيّ ذاك:

- أنّ تفرّقَ الغنم كنايةٌ عن انصرافِها إلى المراعي، ورتوعِها فيها.
- وموتَ الكلب حاصلٌ عندما لم يمتْ مِن الغنم شيء ليأكلَ مِن لحمِه.
- وانطفاءَ النّار لاكتفاءِ النّاس باللّبن عن اللّحمِ[12].

ولستُ إخال أنّ اللّبسَ الذي وقع فيه مَن كان مع الحجّاجِ –بقطع النّظرِ عن صحّة الحادثة– آتٍ مِن قلّة بصرِهم بكلامِ العربِ، وإنّما مِن هذه الدّلالة الأسلوبيّةِ العائمة، ومِن إيرادِ المعنى المراد بغيرِ اللّفظِ المعتاد، "وكان أحدُهم إذا أورد المعنى المقصودَ بغيرِ لفظه المعهودِ، كأنّه لم يأتِ إلاّ به، ولا عَدَلَ عنه إلى غيرِه؛ إذِ الغرضُ فيهما واحد، وكان أبو عليٍّ –رحمه الله– إذا عبّر عن معنًى بلفظٍ ما فلم يفهمْه القارئُ عليه، وأعاد ذلك المعنى عينَه بلفظٍ غيرِه ففهمه يقول: هذا إذا رأى ابنَه في قميصٍ أحمرَ عرفه، فإنْ رآه في قميصٍ كُحليٍّ لم يعرفْه"[13].

وممّا جاءتْ دلالته الأسلوبيّة محتمِلةً قولهم: **"هذا أمرٌ لا يُنادى وليده"**، واللّفظُ غير مختلَفٍ فيه، ولكنْ، يختلفُ في معناهُ وتفسيرِه، فقدْ يكون المعنى الكلّيّ الذي يكتنفُ هذه الكنايةَ:

- أنّ الإنسان يذهل عن ولدِه لشدّة الخطبِ
- أو قدْ يكون أنّه أمرٌ عظيم فلا يُنادى فيه الإماءُ والصّبية، وإنّما الرّجالُ والجلّة.
- أو قد يكونُ كنايةً عن الخطبِ المعضِل والأمرِ الشّديد.
- أو قدْ يكون أنّ المرأةَ تشتغل عن ولدِها فلا تناديه[14].

ومِن مِثل ما تقدّم حديثُه -صلّى الله عليه وسلّم- لِسبَيْعةَ الأسلميّةِ لمّا تشوَّفتْ للخُطّاب بعد أنْ مات عنها زوجُها، فقيل لها: "لا يحلّ لكِ، فسألتْ النّبيّ -صلى الله عليه وسلّم- فقال لها: **ارْبَعي على نفسِك"**[15]، والظّاهرُ مِن هذا التّعبير الأخيرِ "اربعي بنفسِك" أنّه محتمِل لوجهَين: أحدهما أنْ يكونَ مِن "رَبَع" بمعنى: وقف انتظر، وبهذا يوافقُ قولَه –تعالى-:

---

(12) انظر: الجرجاني، المنتخب، 92.

(13) انظر: ابن جني، الخصائص، 2/470.

(14) انظر: ابن جني، الخصائص، 3/167، والجرجاني، المنتخب، 179.

(15) انظر الحديث: الزمخشري، الفائق، 2/28، والرواية فيه: "يا سبيعة، اربعي بنفسك"، وروي: "على نفسك"، وابن الأثير، النهاية، 2/187، وابن منظور، اللسان، مادة "ر ب ع".

"وَالمُطَلَّقاتُ يَتربّصْنَ بأنفسِهِنّ ثلاثةَ قُروءٍ"[16]، وينبني على هذا الفهمِ اللّغويِّ حكمٌ فقهيّ مفادُه أنّه -صلّى الله عليه وسلّم- أمرها بالكفّ عن التّزوّجِ، وانتظارِ مدّة التّربّصِ. وثانيهما معنًى مجازيّ مِن قولِهم: رَبَع الرّجل إذا أخصب الرّبيعُ، فيكون المعنى: "نفِّسي عن نفسِك، وارمي بها إلى الخِصب والسَّعةِ، وأخرجيها عن بؤسِ المُعتدَّة"[17].

وقيل إنّ بعض العراقيّين هجا رجلاً كان على مذهبِ ابن حنبلٍ ثمّ انتقل إلى مذهبِ أبي حنيفةَ، ثمّ انتقل إلى مذهبِ الشافعيِّ، فقال فيه:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي الوَجيهَ رِسالةً وَإِنْ كانَ لا تُجْدي لَديْهِ الرّسائِلُ

تَـمَذهَـبتَ لِـلنّعْمانِ بَـعدَ ابـنِ حَنبَلٍ وَفارَقتَه إذ أعْوَزَتْك المَآكِلُ

وَما اخْتَرتَ رَأيَ الشّافعيِّ تَديّنًا وَلكنّما تَهوى الذي مِنهُ حاصِلُ

وَعَمّا قليل أنتَ لا شكّ صائِرٌ إلى مالِكٍ فافْطن لِما أنا قائِلُ

والمغالطةُ التي أرادها القائلُ في البيتِ الأخيرِ واقعةٌ في "مالك"؛ فمالكٌ هو ابن أنس صاحبُ المذهب، وهو خازن النّار[18]، فلنفطن لِما هو قائلٌ؛ ذلك أنّ في قولِه "مالك" توريةً، والحقّ أنّ تأمّل هذا المصطلحِ يُبِين عن احتمالِ تخلّق اللّبس مِنه، فالتّوريةُ الإخفاء[19]، وكذلك الكنايةُ التي تدلّ على السّترِ والتّغطية، وكلّ ما تقدّم سبيلُه سترُ المعنى وإخفاؤه لكي يتجلّى في هيئةٍ قد تكون محتمِلةً ملبِسة في مواضعَ[20].

وقدْ يكونُ مقصِد المتكلّم التّعميةَ، فيعمد إلى اللّغةِ وسيلةِ الإبانةِ ليصلَ إلى هذا الغرضِ، وسبيلُه في هذا:

- التّورية والكنايةُ.

---

(16) الآية (البقرة، 228).

(17) انظر: الزمخشري، الفائق،2/28.

(18) انظر: ابن الأثير، المثل السائر، 2/205.

(19) انظر مبحث التورية: ابن رشيق، العمدة، 1/311-312.

(20) للحديث عن اللبس الآتي من التورية انظر:

Empson, Seven Types, P. 103, Leech, G. N., A Linguistic Guide to English Poetry, Longman, London, 1969, P.209, Soon, Lexical Ambiguity, P.122.

- أو الإبهامُ باستعمالِ ألفاظ التّنكيرِ، أو العموم.
- أو التّشبيهاتُ المحتمِلةُ المتردِّدة بين معنيَين أو معانٍ.
- أو إرسالُ الكلام مُجمَلاً غيرَ مبينٍ، وتكون اللّغة في تحقيقِ هذا المطلبِ وسيلةَ إلباسٍ وتعمية، فالمعاني، وإنْ كانتْ أكثرُ مقاصدِ الكلام تقتضي الإعرابَ عنها، والتّصريحَ عن مفهوماتِها، "يُقصَدُ في كثيرٍ مِن المواضع إغماضُها، وإغلاقُ أبواب الكلام دونها، وكذلك أيضًا قد نقصد تأديةَ المعنى في عبارتَين: إحداهما واضحةُ الدّلالة عليه، والأخرى غيرُ واضحةِ الدّلالة لضروبٍ مِن المقاصدِ، فالدّلالةُ على المعاني إذن على ثلاثةِ أضربٍ: دِلالة إيضاحٍ، ودلالة إبهامٍ، ودلالة إيضاحٍ وإبهامٍ معًا"[21].

وممّا يجلّي المواضعَ المتقدّمة أنّ المرءَ قد يجنح إلى التّوريةِ للتّخلّص مِن الكذب[22]، ومِن أمثلةِ ذلك أنّ رجلاً مِن الخوارج ألزم رجلاً مِن الشّيعةِ البراءةَ مِن عليٍّ وعثمانَ رضي الله عنهما، فقال: **"أنا مِن عليٍّ وعثمانَ بريء"**، والظّاهر أنّ المتكلّمَ ذاك جعل ظاهرَ البراءة مِنهما معًا، ليدفعَ به شرَّ مَن يقف وجاهَه، وقد أراد البراءةَ مِن عثمانَ وحدَه[23].

وقيل إنّ رجلاً مِن أهل الكُدْيةِ كان يطوفُ بشوارع بغدادَ ويقول: **"ارحموني يا قوم؛ فوالله إنّ في حلقي خمسةً"**، وهو يعني أنّه ينفق على خمسةٍ، وهذا حملٌ يُثقِله، والحقّ أنّها توريةٌ، فقد حُكِي أنّه كان يقولُها مع حركة جسميّةٍ يفتدي بها الحِنث في يمينِه، وهي أصابعُه الخمس المعقودةُ في حلقِه[24]، والظّاهر أنّ المعمِّيَ ذاك لم يكذب، بل جنح إلى الإبهامِ على السّامعِ وتضليلِه بما يصدرُ عنه مِن مقالٍ مخالفٍ لِلحالِ.

وعلى صعيدٍ أسلوبيّ آخرَ، قدْ يعمد المرسلُ إلى الأسلوبِ المُجمَل الملبِس، فيكونُ الكلامُ محتمِلاً لمعانٍ متباينةٍ، ومِن ذلك أنّ شُرَيحًا القاضيَ دخل على زيادٍ في عِلّتِه، وقدْ تركه يجود بنفسِه، فسأله النّاس عن حالِه فقال: **"تركتُه يأمر وينهى"**، فجزِع بعض النّاس

---

(21) انظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، 172.

(22) هذا عنوان باب عقده القاضي الجرجاني في المنتخب، 72.

(23) انظر: القاضي الجرجاني، المنتخب، 72.

(24) انظر: القاضي الجرجاني، المنتخب، 73.

لسلامتِه، وما راعهم إلاّ صياح النّائحات عليه، ولمّا سُئل شُريحٌ في كلامِه قال: تركته يأمرُ بالوصيّةِ، وينهى عن البكاءِ[25].

والملاحظُ أنّ شريحًا جاء بإجابةٍ حصيفة مُجمَلةٍ، وقد استطاع أنْ يوهِمَ سامِعيه بأنّ زيادًا يأمر وينهى، والإجمالُ حاصل فيما يقعُ عليه الأمرُ والنّهيُ: إنّه ينهى عن البكاء، ويأمر بالوصيّةِ! وهكذا تحلّل شُريحٌ مِن سؤالٍ لم يُرِد أنْ يردَّ عليه، فأوهم وعمّى معتمدًا على المبنى المُكثَّفِ والمعنى المُغلَّفِ، والمُفارَقة اللّطيفةُ في هذا المثالِ أنّ مَن سمع جوابَه لا يقوى على رميِه بالكذب، فللجوابِ إذًا وجهان:

- أوّلهما قريبٌ مُلبسٌ ينقدح في خاطرِ المتلقّي للوهلةِ الأولى.
- وثانيهما بعيدٌ مُعمِّى يبقى خبيئًا في نفس المتلقّي.

ومِن مثل ما تقدّم أنّ رجلاً غريبًا طلب امرأةً حسناءَ يتزوّجها، فقالت له دَلاّلة: **"عِندي امرأة كأنّها باقة نرجس"**، فخطبها وتزوّجها، فلّما دخل رأى عجوزًا ذَميمةً، فذهب إلى الدَّلاّلةِ وقرّعها على كذبِها، فبيّنت له أنّها لم تكذبْ حين وصفتْها بباقةِ النّرجس، والظّاهرُ أنّ اللّبس في هذه التّعميةِ المقصودة آتٍ مِن تشبّثِ الدَّلاّلةِ بوجهِ شَبَهٍ تُخفيه، وتشبُّثِ الرّجل بوجهِ شبهٍ آخرَ يُقتنَص مِن ظاهر كلامِ الدّلاّلةِ، فقولها "باقة نرجس" يُلْمِح إلى أنّها فاتنةٌ جميلة، ولكنّ المعمِّيةَ تلك أرادتْ وجهَ شبهٍ آخرَ؛ إذ إنّ مَقصِدَها المعمَّى الإشارةُ إلى صفرةِ وجهِها، وبياضِ شَعرها، وخضرةِ ساقِها[26]، وكذلك باقة النّرجس، والاستدلالُ المنطقيُّ يحتملُ المعنَيَين؛ معنى المخدوعِ المُلتبِس عليه الأمر، ومعنى المخادِع المُعمِّي الذي حفظ لنفسه التّحلّل مِن أيِّ التزامٍ يعقب هذا الحدثَ الكلاميَّ.

وَعلى صعيدٍ أسلوبيّ مشابهٍ، قد يعمد المرءُ إلى أسلوبَي التّنكيرِ والتّعميمِ وألفاظِهما لتحقيقِ الإبهام على السّامعِ، وأغراضُ النّفس مِن هذا كثيرة، والحقّ أنّ هذا الملحَظ شائعٌ في حياتِنا اليوميّةِ، فإذا ما أراد إنسان أنْ يُعمِّي على إنسانٍ فإنّه سيلجأ إلى أسلوب التّنكيرِ، والإكثارِ مِن الدّلالات العائمةِ، والإشاراتِ الضّمنيّة المُبهمَةِ، ولعلّ هذا يكثر في لغةِ الصِّحافةِ والسّياسيّين، ومِن ذلك: "جاءني رجل فسألني عنك"، "وقد علمت مِن مصادر موثوقة".

والحقّ أنّ هذا ليس لَبسًا فاقعًا، وإنّما هو إبهامٌ على السّامعِ، فالسّياسيّ أو الإعلانيّ لا يُقحِم نفسه في دهاليزِ الأسلوبِ المباشِرِ والمُواجِهِ؛ بل يفيء إلى التّلويحِ دون

([25]) انظر: القاضي الجرجاني، المنتخب، 73، والشريشي، شرح مقامات الحريري، 2/451.

([26]) انظر: الثعالبي، الكناية والتعريض، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م، 23.

التّصريحِ، والإبهامِ دون الإحكامِ، وقد ينصب شَرَكًا لغويًّا مقصودًا، وما النّزاع اللّغويّ السّياسيّ: **"من الأراضي المحتلّة، من أراضٍ محتلّة"** إلاّ تجلٍّ مِن تجلّيات الإلباسِ والشَّرَك اللّغويّ المقصودِ[27].

ولمّا تُوفّي الملك الحسين شَرَعت بعض وِكالات الأنباء في الحديثِ عن **"أمن الأردنّ ومصالحه وتهديد دول الجوار"**، وليس القصدُ مِن هذه العبارةِ إلاّ دولة واحدة، أو دولتَين، وفي مِثل هذه المواضعِ يظهر أثرُ الدّلالةِ العائمةِ المُبهَمةِ المحتمِلة التي يتحلّل صاحبُها مِن أيّ التزامٍ يعقبُها، ويؤدّي غرضه مِن إذاعتِها، ويبقى الأمر قائمًا على الإبهامِ والمعنى المُلفَّفِ.

وكذلك قولُهم: **"سنستخدم جميع الوسائل لإنجاح عمليّة السّلام"**، والوسائلُ كلمة عائمةٌ في سياقِها محتمِلة، والمرسِل في هذا القصدِ يعمد إلى الإشارةِ الضّمنيّةِ، فلا يورِّط نفسَه في مواجَهةٍ، أو مساءَلةٍ، أو نقدٍ، فالوسائلُ العسكريّة ممكِنةٌ، والسّياسيّة كذلك، وغيرُ ذلك كثيرٌ.

ومِن أمثلةِ التّلويحِ والإشارةِ الضّمنيّة في لغةِ الصِّحافةِ والسّياسيّين ما تُحُدِّث به عن القدسِ الشّريف؛ عن مَحطِّ الإشكالِ المُعتاصِ، فقد قالتْ دولة غربيّة: **"يجب أنْ تكون مكانًا مفتوحًا لجميع الأديانِ السّماويّة"**، والحقّ أنّ هذه الجملةَ التي حيكتْ دِلالتُها كحِياكة الخيّاطِ الماهر لثوبِه تستوقفُ كثيرين؛ ذلك أنّ لها إيحاءاتٍ متباينةً، فما معنى كونِها "مكانًا مفتوحًا"؟ وهل في هذه الدّلالةِ "مكانًا مفتوحًا" إلماحةٌ إلى تدويلِ القدس؟ أو فيها إلماحةٌ إلى حريّة الأديانِ بقطع النّظرِ عن السّيادةِ؟

والقوّامون على شؤونِ النّاس يقولون: **"تحديد أسعار السّلع الاستهلاكيّة"**، وهم يعنون رفعَ الأسعارِ، ويعمدون في هذا كلّه إلى الاستعانةِ بألفاظٍ تلطفيّة للتّغطيةِ عن مرادِهم، أو لأقلْ: للتّخفيف مِن وقعِ هذا القرارِ على المستهلِكِ.

وفي مَطلَع ذيوعِ قصّة "كلينتون" مع "مونيكا" ألمحتِ الصِّحافةُ الغربيّة إلى وجودِ "علاقة" بينهما، وبقي الأمرُ مفتوحًا لانفتاحِ هذه الدّلالةِ المبهمَةِ المنكَّرَة، وبقي حال مَن يسمعُ هذا الخبرَ كمن ينظرُ إلى المعنى مِن سِتْرٍ رقيقٍ، فيخلدُ إلى سوانحِ فكره في تصوّرِ هذه

---

(27) لهربرت أ. شيللر في كتابه "The Mind Managers" "المتلاعبون بالعقول" تنظير معجب في مطلب الحديث عن الإعلان والإعلام، وقد وقف عند "أسطورة الحياد"، وتضليل الأفراد، وهم لا يدركون، والسبيل إلى هذا "التجزيئية" "Fragementation" والمتابعة الإعلامية الآتية. انظر كتابه: المتلاعبون بالعقول (الإصدار الثاني)، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، 1999م.

العلاقةِ وطبيعتِها! ثمّ تحدّثتْ الصّحافة الأجنبيّةُ عن "وجودِ علاقة حميمةٍ" intimate relation ، والحقّ أنّ في هذا الاستعمالِ اللّغويّ تلويحًا فاقعًا لِما يكتنفه ويلابسُه، وتلطّفًا في الدّلالة الأسلوبيّةِ، وتحلّلاً مِن أيّ التزامٍ قد يعْقُب هذا الحدثَ الكلاميّ؛ إذْ إنّه قائمٌ على الإبهامِ والعموميّةِ دون الإحكامِ والخصوصيّةِ.

وممّا حُدِّثتُ به وأنا أستشرفُ وقائعَ كلاميّةً ملبِسة في هذا المِضمار أنّ امرءًا عُلّق فتاةً فأراد أنْ يَخطِبها، فسأل عنها صديقًا له، فقال له: "ما لك وشأنَها؛ **إنّ لها رفيقًا تأتي معه كلّ يومٍ في سيّارته إلى الجامعة**"، فأعاد الأوّل المُساءَلةَ تارةً أخرى للتّحقّق مِن هذا الأمرِ، وما كان مِن الثّاني إلاّ أنْ أعاد ما أذاعه في مسامعِه مِن قبلُ، فصرف الأوّلُ نظره عن هذا المَطلب، وقدْ كان الثّاني يعلم أنّ الذي يأتي معَها كلّ يومٍ في الغُدوِّ والرّواحِ أخوها، ولكنّه –أعني الثّاني– كان يُؤمِّل في الزّواجِ مِنها، فأخرج كلامَه منكَّرًا ذا عموميّةٍ تتّسع لمُدْخَلات وإيحاءاتٍ متنوِّعةٍ، ولو أنّه أتى بيمينٍ غليظٍ كأيْمان ابن دريدٍ في ملاحنِه لَما كان كاذبًا، ولَتحلّلَ مِن أيّ التزامٍ.

وقدْ يحدثُ أحيانًا أنْ يَتواصلَ اثنان بكلامٍ خاصٍّ قائمٍ على الحذفِ والاختصارِ والكنايات والإشاراتِ العائمةِ، وليس يخفى أنّ مَن يَرِدُ على حديثِهما لا يكاد يَنْدى مِنه بطائلٍ، وما مِن ريبٍ أنّ نجاحَ هذا التّواصلِ السّريِّ قائمٌ على مجموعةٍ مِن العوامل متضافرة، كَالحَميميّة المُؤلِّفةِ بين المشتركين، وهيئةِ العلاقةِ وطبيعتها، فللمهرِّبين ألفاظٌ خاصّة يجترحونها للتّعمية والتّغطيةِ، ومظاهرُ لغويّةٌ قدْ تخفى على مَن يقعُ خارجَ حظيرتهم، فالأرنبُ عندهم "المليون"، والأخضرُ هو "الدّولار"، وليس يُنسى أنّ لهم تعبيراتٍ اصطلاحيّةً خاصّةً، وأنّ التّعميةَ اللّغويّة مطلبٌ له خطره في لغةِ العيونِ والجواسيس، وسيأتي بَعْدًا في الدّراسةِ التّطبيقيّة حديثٌ عن حادثةِ الأسير الذي استعان باللّغةِ ذاتِها لِيُوَرّيَ عن مرادِه في إنذار قومِه مِن غزو مَن يأسرونه.

ومِن مثل هذا التّواصل اللّغويّ الذي لم يفهمه إلاّ قطباه، ما قاله أحدُهما:

ما هذا الخدش في وجهك؟

فقال: إنّي سقطت عن فرس لي أشقر.

فقال: أين أنت عن الأشهب الوطيء؟

والحاصلُ أنّ هذا الحدثَ الكلاميّ موغِلٌ في الإلباسِ والتّعمية؛ ذلك أنّ قطبَيهِ أرادا ذلك لِيَخْفى على مَن حولَهُما، فالفرسُ الأشقر ههنا الخمرُ، والمتعيِّن مِن هذه التّعميةِ أنّ إفراطه

في الشُّرب أفضى إلى تمايلِهِ فسقوطِه فَخَدْشِ وجهِه، فاستدرك عليه القطبُ الثّاني مستنكِرًا عليه هذه الفعلةَ قائلاً: أين أنت عن الأشهبِ الوطيءِ؟ أي الماء الذي هو كالفَرس الذَّلولِ[28].

وممّا هو قريب ممّا تقدّم قصّةُ خالدِ بنِ الوليدِ مع رجلٍ من أهل الحيرةِ، ويظهر مِن تلك القصةِ المعاياةُ الكلاميّة التي يُقحِم فيها ذلك الرّجلُ خالدًا رضي الله عنه، وسبيلُه في هذا اللّغةُ، والإجاباتُ العائمة المتحلِّلة مِن أيّ التزامٍ يعقبُها، وقد وصفها الجاحظُ بأنّها باب "مِن اللّغزِ في الجواب"[29]، ومضمونُها أنّ خالدًا قالَ لأهلِ الحيرةِ: أَخْرِجوا إليَّ رجلاً مِن عقلائِكم أسأله عن بعضِ الأمورِ، فأخرجوا إليه عبدَ المسيح بن عمرٍو[30]، فقال له خالدٌ:

- مِن أين أقصى أثَرِك؟ فقال: مِن صُلْب أبي.
- قال: فَمِن أين خرجتَ؟ قال: مِن بطنِ أمّي.
- قال: فعلامَ أنت؟ قال: على الأرضِ.
- قال: ففيم أنتَ؟ قال في ثيابي.
- قال: فما سِنّكَ؟ قال عَظْم.
- قال: أتعقلُ لا عقلتَ؟ قال: إي والله وأقيّد.
- فقال له: ابنُ كم أنتَ؟ قال: ابن رجلٍ واحد.
- قال: كم أتى عليك مِن الدّهر؟ قال: لو أتى عليّ شيء لقتلني.

حقًّا أنّها معاياةٌ كلاميّةٌ قائمةٌ على الإلباسِ، والتّلاعبِ باللّغةِ، وإمكانات التّعميةِ، ولذا عقّب خالدٌ بعد أنْ ضاق صدرُه بهذا التّهرّب اللّغويّ قائلاً: ما تزيدني مسألتُك إلاّ غُمّى[31]، فردّ عليه ذاك مماحِكًا: ما أجبتك إلاّ عن مسألتِك[32].

أختتم هذه المباحثةَ بالإشارة إلى أنّ ثَمّ بَونًا عريضًا بين الغموضِ الفنّيِّ واللّبس الأسلوبيِّ؛ ذلك أنّ الغموضَ الفنّيَّ، وتعدّد المعاني، وانفتاحَ الدِّلالة، مطالبُ رئيسةٌ في اللّغة الشّعريّةِ، وفي هذه النّقطةِ على وجهِ التّعيين يحدث التّمايزُ الفارق بين الغموضِ الفنّيِّ واللّبس الأسلوبيّ؛ ذلك أنّ اللّبسَ عامّة، والأسلوبيَّ في هذا المقامِ خاصّة، تعطيلٌ للقولِ بفضل اللّغةِ

([28]) انظر: الثعالبي، الكناية والتعريض، 67.

([29]) انظر: الجاحظ، البيان، 2/147-151.

([30]) قيل إنه من المعمّرين، وقد أدرك الإسلام ولم يسلم.

([31]) الغمّى: الأمر الملتبس.

([32]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 2/147-148.

في إقامة التّواصلِ، وليست لهذا الغرض اللّغةِ، إلاّ لِمن أراد تعميةً وتغطيةً في مواقفَ وعوارضَ مخصوصةٍ.

أمّا الغموضُ الفنّيّ فليس المقصِد منه التّعميةَ أو التّغطية، بلْ هو وجهٌ آخرُ مِن وجوه التّواصل الإبداعيِّ، وإشراكُ المتلقّي في هذه العمليّةِ ليكونَ مُنتِجًا للدِّلالةِ النّصيّةِ في القراءة[33]، "ولو كان التّعقيد وغموضُ المعنى يُسقطان شاعرًا لَوَجب ألاّ يُرى لأبي تمّامٍ بيتٌ واحد، فإنّا لا نعلم له قصيدةً تسلم مِن بيتٍ أو بيتين قد وَفَر مِن التّعقيد حظّهما، وأُفْسِد به لفظُهما، ولذلك كَثُر الاختلافُ في معانيه، وصار استخراجُهما بابًا منفرِدًا ينتسبُ إليه طائفة مِن أهل الأدبِ، وصارت تُتطارح في المجالسِ مطارحةَ أبياتِ المعاني وألغاز المُعمّى"[34].

ولكنْ، قد يحدث أنْ يَفزَع المُبدِع إلى بعضِ إمكاناتِ اللّغة في الإلباسِ لغاياتٍ جماليّة محضةٍ، وممّن عُرِف بهذا المذهب قديمًا أبو العلاء المعريُّ، ففي قصيدتِه التي مطلعُها:

مَغاني اللّوى مِنْ شَخْصِكِ اليَومَ أطْلالُ وَفي النّوْمِ مَعنًى مِنْ خَيالِكِ مِحْلالُ

يلحّ على عَقد مُفارقاتٍ لغويّة قائمةٍ على المشترَك اللّفظيِّ، ومِن ذلك:

مَعانيكِ شَتّى وَالعِبارَةُ واحِدٌ فَزَنْدُكِ مُغتالٌ وَطَرفُكِ مُغْتالُ

وَأَقْتال حَرب يُفْقَدُ السّلمُ فيهِمُ عَلى غَيْرِهِم أمْضي القَضاءَ وَأقْتالُ

حُروفُ سِرًى جاءَتْ لِمعنًى بَرَتْنِيَ أسْماءٌ لَهنّ وأفْعالُ

أردتُه

إذا صَدَقَ الجَدُّ افْتَرى العَمُّ مَكارِمَ لا تُكْري وَإِن كَذَب الخالُ

للفَتى

بَدَتْ حَيّةٌ قَصْرًا فَقلتُ لِصاحِبي حَياةٌ وَشَرٌّ بِئسَ ما زَعَم الفالُ

---

(33) لقد غدت هذه مقولة عند أهل النظر التفكيكي "Deconstruction"، فقد هجس بها "رولان بارت"، فأعلن موت المؤلف، وولادة الأثر الأدبي، والقارئ يعشقه، فيقيم معه علاقة شهوة، كل ذلك باعثه القول بتشظي اللغة، والإشارة العائمة، والمعنى المنزلق. انظر:

Baland, R., The Pleasure of the Text, translated by Miller, R., London, 1976, P. 27.

وانظر: بارت، النقد والحقيقة، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية، الدار البيضاء، 1985م.

(34) انظر: القاضي الجرجاني، الوساطة، 417.

يعمد أبو العلاءِ إلى ظاهرةِ المشترَك اللّفظيّ، فالمعاني شتّى، والعبارةُ واحدة:

- فالزَّنْد المُغتال مأخوذٌ مِن قولهم: ساعد غَيْل إذا كان ممتلئًا، والمُغتال الثّاني مِن الإهلاك.
- والأَقْتال الأولى جمع قِتْل، وهو العدوّ، و"أَقْتالُ" الثّانية فِعل مِن قولنا: اقْتلتُ على الرّجلِ أَقْتالُ: إذا احتكمت عليه.
- والحُروف: النّوق، وقولُه "برتْنيَ أَسماءُ وأفعال" إلغازٌ بقول النّحويّين: "اسمٌ وفعل وحرفٌ جاء لمعنًى"، فالحرفُ في هذا الإبلُ التي أضعفها السّفر.
- وأفعالُها بَرَتْ جسمه، فَحَركتُها به وانتقالُها كالأفعالِ التي تُصرّف الاسم، فترفعه تارةً، وتنصبه تارةً.
- أمّا برْيُ أسمائها فهو محتمِلٌ معنيَين: أحدهما أنّه يريد أنّها لمّا كانتْ تسمّى حروفًا –وذلك لضعفِها وهزالها– كان في أسمائِها فألٌ بأنّه سيصير حَرفًا مثلَها، أوْ أنْ يصحبَه الحُرْف، وهو الحِرمان الذي أضنى جسمه، وأكثر همَّه.
- والجَدّ في سياقِه الحظّ، والعَمّ: الجماعةُ، والخال: المَخيلة، وتُكري: مِن أكرى الزّاد إذا نقص، وقد ألغز عن العمّ، والجَدّ، والخالِ. أمّا البيتُ الأخير فهو قائمٌ على ملحظِ الاشتقاقِ الدّلاليّ؛ ذلك أنّ الحيّةَ تدلّ على الحياةِ، وهي في الوقتِ نفسِه شرّ: "حياةٌ وشرّ بئس ما زعم الفالُ"[35].

والحقّ أنّ الحديثَ عن الغموض الفنّيّ ليس مَطلبًا مِن مطالبِ هذه الدّراسةِ، وقد عرّج عليه بإسهابٍ "Empson" في كتابِه "سبعة أنماط مِن الغموضِ"[36].

([35]) انظر: التبريزي(502هـ)، والبطليوسي(521هـ)، والخوارزمي(617هـ)، شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الدار القومية، القاهرة، 1964م، 1211-1263.

([36]) لمزيد بسط القول في هذه الظاهرة في العربية، انظر: عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار الثقافة، بيروت، 1966م، وإبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1987م.